**المحاضرة الخامسة : سياقات إنتاج الأعمال الفنية**

**الهدف الخاص** : - يتعرف الطلبة على أهم السياقات الثقافية والاجتماعية التي تنتج فيها الأعمال الفنية وفق منظور مؤرخي الفن وسوسيولوجييه .

- يتعرف الطلبة على السياق المادي في انتاج الاعمال الفنية وفق المقاربة الماركسية في انتاج الاعمال الفنية .

**تمهيد:** نحاول من خلال هذه المحاضرة أن نعالج بالقراءة والتحليل لأهم السياقات التي تنتج وفقها الأعمال الفنية وفق منظورات علمية لمختلف المدارس السوسيولوجية كما قاربها منظورها.

**- مؤرخرو الفن وسياق إنتاج الأعمال الفنية:**

إنكب عدد كبير من مؤرخي الفن على دراسة إنتاج الأعمال الفنية وتلقيها من خلال سياقها الاجتماعي والتفاعل معه, فشدد بعضهم على الجانب المادي, كالأمريكي ميلارد ميس الذي يرى أن وباء الطاعون الذي انتشر في القرن 14م كان سببا أساسيا في إنتاج فن الرسم في "توسكانة" مشيرا إلى عودة الإيمان الديني الذي رافق موجة الوباء, واستغلال المحافظين سواء من رجال السياسة أم من رجال الدين نزعة التدين هذه من أجل محاربة الفن الإنسي, وشدد بعضهم الآخر على أهمية الجانبين المادي والثقافي في آن واحد[[1]](#footnote-2), في نظر ميس إنتاج الأعمال الفنية يعود لبعض الإختلالات والتغيرات التي تحدث في المجتمع فتؤثر فيه وتحرك فيه الفكر والثقافة من خلال فنانيه فينكبوا على تصوير معاناة المجتمع ومحاكاته من خلال مجموعة من الأعمال الفنية كالرسم والموسيقى والشعر والادب والرواية والقصة ومختلف المنتوجات التي تعكس حالة وواقع المجتمع في تلك الحقبة الزمانية, وهذا التصوير الفني طبعا يعكس الاهتزاز والتغير الذي يحدث في المجتمع من خلال تغير نظرته للحياة والإنسان عندما تحل به المصائب والمحن, ويعود إلى الدين لملأ الفراغ الروحي وإرجاع ما حدث له إلى تفسيرات ميثافيزيقية حسب ميلارد ميس بالنسبة للمجتمعات الغربية, ولو قمنا بإسقاط بسيط على ما هو واقع اليوم من فيروس كورونا فإنه فعلا أثر تأثيرا قويا على كل شعوب المعمورة مسلموها ومسيحيوها وملحدوها فإنهم أصيبوا بالذهول والحيرة والخوف وأعلنوا استسلامهم وعجزهم أمام هذا الوباء وسلموا أمرهم إلى الله, فالمسلمون ليس غريب عندهم ذلك لأنهم يرجعون كل حدث إلى قوة الله وجبروته ويؤمنون بأن الله هو القادر وهو المانع وهو الذي يستطيع أن يقول للشيء كن فيكون, أما الملحدون فغير ذلك, ولكن هذا الفيروس أو الوباء العالمي غير من تفكيرهم وراجع إيمانهم ونظرتهم إلى الكون والحياة, حيث نجد أن أغلب العواصم والمدن الغربية والأوروبية حسب وسائل الإعلام المختلفة, رفعت صوت القرآن الكريم في مختلف المناطق والأماكن والكنائس, عسى الله أن يلطف بهم ,ولا شك فإن النخب من الفنانين سينتجون في خضم هذا الحدث الوبائي العالمي منتوجا فنيا يحاكي الواقع المؤلم الذي عاشه العالم في أشكال فنية مختلفة سواء كانت مصنوعات, أو منتوجات فنية أو صور أو شعر, أو رواية ... إلخ من النمادج الفنية التي تعبر عن الاختلال المجتمعي العالمي على المستوى الاجتماعي, الاقتصادي, السياسي الصحي, النفسي, العلمي, ومن جهة أخرى نجد الفرنسي جورج دوبي يفسر نشوء أشكال فنية جديدة في القرن الرابع عشر باجتماع ثلاثة عوامل في آن واحد, تبدأ من المادي المحصن وتنتهي بالثقافي المحصن, وهي التغير الجغرافي الذي حدث في توزيع الثروات بظهور فئات جديدة من الزبائن, والمعتقدات والعقليات الجديدة التي تنشأ مع إنتشار ثقافة التهديب والمجاملة, والحراك الخاص بالأشكال التعبيرية التي تفرض البحث عن حلول تشكيلية خالصة[[2]](#footnote-3) تقول الباحثة ناتالي إينيك[[3]](#footnote-4) عند قراءة أعمال أولئك المؤرخين نجد بأن المنظور المادي الصرف كان عليه في لحظة معينة من التحليل والتنظير أن يفسح المجال أمام أولوية عوامل فكرية أقل إنتماء إلى القطاع الاقتصادي أو أقل تبعية وخضوع لقوانين خارجية, وأكثر إلتزاما بصفات ومواصفات التحديدات الخاصة بالإبداع والتزاما بها, أو أكثر استغلالية, تقدم السياق الثقافي إذا على السياق المادي في الدراسات البارزة في ميدان التاريخ الاجتماعي للفن, وقد مهد له السبيل التاريخ الثقافي[[4]](#footnote-5) تصنيف الباحثة ناتالي إينيك بأن المؤرخون ومن ضمنهم مؤرخو الفن في إيضاح مسألة السياق الثقافي, ففي بريطانيا درس "ريموند وليافر" مراحل ظهور العبارات والكلمات التي تحيل إلى الثقافة, والتغيرات في العلاقة بين الجمهور وأصحاب الأعمال الفنية, وكذلك ظهور استقلالية العمل الفني, وانصرف " بيتر بورك " إلى دراسة وظيفة "منظومة الفن" داخل المجتمع من منظور تعدد المناهج المعرفية, وكذلك إلى دراسة الثقافة الشعبية التي حدد أشكال توارثها عبر الأجيال, وكذلك حدد أنماطها المخصوصة, وأبطالها وتحولاتها, كما يوجد مؤرخ إنجليزي آخر هو "تيموثي كلارك" انصرف إلى دراسة تاريخ الفن في فرنسا في القرن 19, فدرس في البداية علاقة الفنانين بالسياسة في الفترة بين (1848-1851) بغية تبيان السمات والمعاني الإيديولوجية في أعمالهم الفنية بعد ذلك سعى كلارك إلى إعادة تركيب السياق الباريسي في أعمال الفنانين الباريسيين كما درس الفرنسي كريستوف شارل 1979 علاقات القوى بين المدارس الأدبية وأنواع الأعمال الفنية في النصف الثاني من القرن 19 في إطار التاريخ الاجتماعي للأدب[[5]](#footnote-6) لذلك يمكن القول بأن مختلف المدارس التي تناولت بالدراسة والتحليل تاريخ الفن والأعمال الفنية ترجع إنتاج الأعمال الفنية إلى السياق الثقافي بالدرجة الأولى مع أن السياق الاجتماعي الذي له علاقة وطيدة ومتشابكة مع السياق الثقافي لأن هذا الأخير ينتج ضمن السياق الاجتماعي, لذلك يمكن القول أن النظر في الفن, ضمن سياقه الاجتماعي يضرب بجدور عميقة في دراسات الفن, سواء من علماء الاجتماع الكلاسيكيين, او طلائع علماء الاجتماع الذين عاشوا قبل ظهور العلم المعروف باسم علم الاجتماع بشكله المورد في أواخر القرن 19, وبعض أنواع مؤرخي الفن, فتاريخ هذه المحاولات ترجع إبتكار الأعمال الفنية إلى العوامل الاجتماعية ,قد ربطت الأعمال الفنية فعليا بالسياق الثقافي وليس الاجتماعي الذي أنتجت فيه, ومن بينهم عالم اجتماع الفن " جيامبا تيستافيكو" من مدينة نابولي في أوائل القرن الثامن عشر, ويرى فيكو أن لكل ثقافة أسلوبها الخاص, وهو مبدأ خاص يتسم بالعمومية والشمول بحيث أن كل جوانب الثقافة بغض النظر عن مدى تنوعها الظاهري بما في ذلك لغتها ومعتقداتها الدينية وعاداتها اليومية وفنها تتشرب جميعا الأفكار والمواقف الأساسية نفسها ,وعليه يذهب فيكو إلى أن الثقافة هي بمنزلة روح المجتمع التي تنفخ فيه الحياة, وفن المجتمع هو الأشد تعبيرا عن هذه الروح, على هذا الأساس يمكن النظر إلى الإنتاج الفني بوصفه تعبيرا عن أعراف وتقاليد المجتمع, وليس تعبيرا ذاتيا عن مزاج شخصي لفرد فالشخص الفعلي أو الأشخاص الذين يبدعون هذه القطع الفنية يمكن النظر إليهم على أنهم يعبرون في إنتاجهم عن عقلية المجموعة ّأكثر من التعبير عن الرؤية الفردية[[6]](#footnote-7), ويعد ذلك تبني بعض المفكرين أفكارا من هذا النوع في كل من فرنسا وألمانيا في البداية ,مدام ديستيل 1803 التي أجرت دراسات على الأدب والعوامل المؤثرة فيه كالدين والنظام القانوني وعادات وثقافات معينة, كذلك سيطر أسلوب المعالجة نفسه في ألمانيا, فالفيلسوف "هيردر" 1800 أحد رواد الحركة الروسية المشار إليها سابقا, وكان له فضل دعم النظر إلى الفن في سياقه الثقافي, في محاولة التفسير لماذا تزدهر بعض أنواع الفن في سياقات ثقافية معينة دون غيرها[[7]](#footnote-8), وفي الوقت نفسه وفي الاتجاه ذاته تقريبا قدم هيغل تحليلا ,كيف تعبر"روح" ثقافة -وبالخصوص أفكارها حول أكثر القيم نبالة وقيمة- عن نفسها بشكل كامل وشامل في الأعمال الفنية والمنتجة في هذه الثقافة, إذا لم تكن طرق معالجة الفن التي تسر على وضعه ضمن سياق ثقافي مؤثرة فقط في المراحل اللاحقة من عمر علم الاجتماع, بل نلمسها أيضا في قطاعات معينة من تخصص تاريخ الفن, وهذا ما تطرقنا إليه سابقا في الجزء الأول من المحاضرة, مما يوضح حقيقة أن بعض أشكال التفكير في كلا التخصصين تشترك في الكثير, وقد تطور اتجاه مهم في البحوث في تارخ الفن في البلدان الناطقة باللغة الألمانية تأثرا بنظرة هيغل عن الحاجة إلى رؤية الفن ضمن سياق ثقافي[[8]](#footnote-9) من الواضح إذا بأنه لايمكن فهم الأعمال الفنية وفق هذه النظرة إلا في إطار الثقافة التي صنعت فيها.

**سياق النظرية: الماركسية في إنتاج الأعمال الفنية:**

فالتحليل الماركسي يستبدل التركيز على السياق الثقافي المذكور آنفا بإدعاء أن الأعمال الفنية قد أنتجت تعبيرا عن الحالة المادية للمجتمع عند نقطة زمنية معينة مبدئيا, يعني ماركس بالحالة المادية العلاقات الاجتماعية التي تحكم المجال الاقتصادي لمجتمع ما, وهي تمثل في رأي ماركس البناء التحتي الاجتماعي, الاقتصادي للمجتمع الذي يشكل البناء الفوقي (أي البنية الثقافية), لذلك المجتمع , هذه النظرة شجعت المحللين الماركسين على النظر إلى الأعمال الفنية باعتبار أنها ذات طبيعة إديولوجية بحتة, وأن ما تقوم به الأعمال الفنية هو تجسيد الاديولوجيات السائدة في مجتمع ما في حقبة زمنية معينة وهذه الإديولوجية هي نتاج تفكير طبقات اجتماعية معينة[[9]](#footnote-10).

فالنظرية الماركسية في تحليل طبيعة الإنتاج الفني ترجعها إلى تأثير العوامل المادية أي تعبير تلقائي عن العلاقات الاجتماعية/الاقتصادية.

**خاتمة:**

أرجع أغلبية علماء إجتماع الفن ومؤرخو الفن على اختلاف مدارسهم ,المدرسة الامريكية والبريطانية أو الألمانية والفرنسية أن إنتاج الأعمال الفنية يعود بالأساس إلى السياق الثقافي والاجتماعي, فيما أرجع ماركس في ذلك إلى السياق المادي الذي واجه تحليل نقدي فيما ذهب إليه من طرف الكثير من علماء الاجتماع الفن وخاصة منهم المحدثون.

1. ناتالي اينيك: سوسيولوجيا الفن, ترجمة حسين جواد قبيبسي, المنظمة العربية للترجمة, لبنان, 2011, ص61. [↑](#footnote-ref-2)
2. نفس المرجع, ص62. [↑](#footnote-ref-3)
3. عالمة اجتماع وباحثة في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي مولودة سنة 1955. [↑](#footnote-ref-4)
4. ناتالي اينيك, مرجع سابق, ص62. [↑](#footnote-ref-5)
5. نفس المرجع, ص63. [↑](#footnote-ref-6)
6. ديفيد إنغليز, جون مدسون, ترجمة: ليلى الموسوي, سوسيولوجيا الفن طرق للرؤية, عالم المعرفة, الكويت,2008,ص18. [↑](#footnote-ref-7)
7. نفس المرجع, ص19. [↑](#footnote-ref-8)
8. نفس المرجع,ص20. [↑](#footnote-ref-9)
9. نفس المرجع,ص22. [↑](#footnote-ref-10)